الدّرس السّادس

اللسانيات والتّواصل

إنّ العلاقة الواضحة بين اللسانيات والتّواصل كوظيفة أساسية للغة أو باعتباره (التّواصل) مفهوما يقرب من حقل علمي تخصصي موضوعه الاتصال لا ينكره أحد. إن اللغة هي أهم وسائل التّواصل من حيث أنها نظام من العلامات، والدّليل في ذلك أن الحياة الاجتماعية –حسب نافيل A. Naville–لا يمكن تصوّرها من دون وجود علامات تواصلية[1]. وليس هناك من جديد إذا قيل إنّ أهم خاصية في اللغة من جانب الوظيفة أنها وسيلة تواصل بين أفراد البشر داخل مجتمع ما.

أوّلا– التعريف بالتّواصل:

إن التّواصل كاصطلاح ليس في حاجة إلى تأسيسه على دلالتّه اللغوية، ولسنا في حاجة إلى جلب تعريفاته المختلفة، وإنما يكفي أنْ نذكر ما به يُعرف الشيء دون النظر إلى التّفصيلات التّخصصية. يُعَرّفه عمر أوكان بالقول:« التّواصل هو تبادل أدلة بين ذات مرسلة وذات مستقبلة، حيث تنطلق الرّسالة من الذات الأولى نحو الذات الأخرى، وتقتضي العملية جوابا ضمنيا أو صريحا عما نتحدث عنه، الذي هو الأشياء أو الكائنات، أو بعبارة أشمل "موضوعات العالم"، ويتطلب نجاح هذه العملية اشتراك المرسل والمرسل إليه في السّنن حتى يتم الإسنانُ والإستسنانُ على الوجه الأكمل كما أراد له المجتمع اللغوي، كما تقتضي العملية قناة تنقل الرّسالة من الباث إلى المتلقي»[2]. والملاحظ في تعريف عمر أو كان للتواصل أنه لم يستطع عزل المفهوم عن النشاط والتّحقق وذلك من

---

1 – نقلا عن الاتجاهات الأساسية في علم اللغة، رومان جاكبسون، تر: علي حاكم صالح وحسن صالح، المركز الثقافي العربي، الدّار البيضاء –المغرب، بيروت–لبنان، ط1، 2002، ص49.

2 – اللغة والخطاب، عمر أوكان، ص36.

خلال ذكر ركائزه وشروط نجاحه، وفي مجال علم الاتصال هو انتقال المعلومات والحقائق والأفكار والآراء والمشاعر[3].

ويصح في مجال اللسانيات بإضافة ومن ثمة تخصيص مفهومه العام . عبارة "عن طريق اللغة المنطوقة". ويمكن تخصيصه أكثر أي التّعريف في أن التّواصل ليس مجرد نقل المعلومات وغيرها من الآراء والمشاعر بين أفراد المجتمع الواحد. إذ أنّ عملية النقل تلك غرضها التّواصل، أو التّواصل يُوظف النقل ليتم أو يتحقق، وعلى كُلّ حال ما يتلقاه الفرد من معلومات دون أن يقصد إلى تخصيصها له لا تُسمى تواصلا[4].

ثانيا– أهمية اللغة في أنظمة التّواصل:

يرى إدْوارد سابير Edward Sapir (1884-1939م) أن اللغة المنطوقة تُقدم على جميع الأنواع الأخرى من أنواع الرّمزية التّواصلية وبالنسبة لإميل بنفنيست Emile Benveniste (1902-1976م) تُعد اللغة البشرية هي التّعبير الرّمزي الأوّل، وأن بقية أنظمة التّواصل ـ كُلها ـ تُستمد منها، بل وتفترض وجودها. ولم يغفل كلود ليفي شتراوس Claude Lévi–Strauss (1908 – 2009م) أهمية اللسانيات في منظومة مقترحة من أجل علم متكامل للتواصل بمعية الأنثروبولوجيا الاجتماعية وعلم الاقتصاد، ويظهر بشكل أوضح عنده في اعتقاده بوجود ثلاثة مستويات مختلفة بعمل التّواصل من خلالها في كُلِّ مجتمع، وهي تبادل الرّسائل Exchange Of Messages، وتبادل البضائع Exchange Of Commodities (أي السّلع والخدمات)، وتبادل النساء (وبصيغة أعم تبادل الأزواج). ويعرف شتين روكان Stein Rokkan أحد ثالوث العلوم عند كلود ليفي شتراوس وهي الأنثروبولوجيا الاجتماعية بأنها علم الإنسان بوصفه حيوانا يتكلم أو ينطق[5].

---

3 – مدخل إلى علم الإتصال، منال طلعت محمود، د م ن، الإسكندرية–مصر، دط، 2002، ص18.

4 – ينظر معرفة اللغة، جورج يول، ص32.

5 – نقلا عن الاتجاهات الأساسية في علم اللغة، رومان جاكبسون، ص58-61.

ويرى فرديناند دو سوسير Ferdinand De Saussure (1857-1913)، أنّ اللغة نظام من الإشارات التّي تعبر عن الأفكار وأنّها قبل ذلك عبارة عن نظام اجتماعي، وهي خبر أو أفضل ما يقدم لفهم علم الإشارات[6].

ثالثا– التواصل في دائرة البحث اللساني:

1– التّواصل عند دو سوسير De Saussure :

تناول فرديناند دو سوسير في كتابه المحاضرات العملية التّواصلية كحدث معين فيما يُسمى الدّائرة الكلامية، وأكدّ على أنّ الدّائرة الكلامية لا تكتمل إلا بوجود شخصين على الأقل هما (أ) المرسل، و(ب) المرسل إليه. وينطلق من افتراض مفاده أنّ انطلاق الحدث الكلامي أو بدأ الدّائرة يكون من دماغ (أ) حيث ترتبط هنا الأفكار بصورها الصوتية، إنّ الفكرة المعينة تثير الصورة الصوتية التّي ترتبط بها أو تستدعيها، وهذه العملية سايكولوجية (ذهنية) مكانها الدّماغ، ثم تتبعها عملية أخرى تنبني عليها فسيولوجية، حيث يرسل الدّماغ إشارة مناسبة للصورة الصوتية إلى الأعضاء المعدة لإنتاج الأصوات، فتنتقل الموجات الصوتية من فم المرسل (أ) إلى المرسل إليه (ب) عبر الأثير وهذه عملية فيزيائية محضة، ثم تستمر العملية لاكتمال الدّائرة عند المرسل إليه (ب)، ولكن بطريقة معكوسة إذ تسير الإشارة من الأذن إلى الدّماغ، وهي عملية فسيولوجية، وفي الدّماغ هناك تتم عملية الرّبط السّايكولوجي بين الصورة الصوتية والفكرة . وإذا تكلم (ب) الذي كان مرسلا إليه بدأ فعل جديد من دماغ (أ) الذي يصبح مرسلا إليه بعد أن كان مرسلا[7].

2– التّواصل عند بلومفيلد Bloomfield :

نقل لنا عمر أو كان في كتابه "اللغة و الخطاب" الجانب التّواصلي في النظرية التّوزيعية كما أسس لها صاحبها ليونارد بلومفيلد Leonard Bloomfield (1887-1949م)، والذي فسر الظاهرة

6 – علم اللغة العام، دي سوسور، ص34-35.

7 – ينظر المرجع نفسه، ص29-30.

اللغوية تفسيرًا سلوكيا متأثرًا بنظريات المدرسة السّلوكية في علم النفس القائمة على المثير والاستجابة وأشهر وأبسط ما أوضح به ذلك قصة جيل وجاك، فقد كان جاك وجيل يتجولان في بستان، إذْ شعرت جيل (الفتاة) بالجوع وأبصرت هناك في الحقل تفاحة على غصن شجرة، مما جعلها تُصدر أصواتا بواسطة أعضائها التّصويتية مُوَجهة إلى جاك (الفتى)، يستقبلها هذا الأخير، وعلى إثر ذلك يتجه إلى الشجرة ثم يتسلقها، ويقطف التّفاحة من غصنها، ثم يتوجه بها إلى الفتاة (جيل) لتأكلها. إنّ هذه القصّة في جوهرها عملية تواصلية بين طرفين هما جاك وجيل قائمة على فكرتي المثير والاستجابة. والفارق بينها وبين عملية دو سوسير أنّ هذا الأخير فسّرها من خلال الكلام في ذاته وكنشاط ذهني أو سايكولوجي بشكل أساس أمّا العملية في مستوييها الفسيولوجي عند المرسل (أ) والمرسل (ب) والفيزيائي فليست لهما صلة لا بمفهوم الكلام ولا اللغة وإنْ كان ضروريان في تفسير الحدث أو الدّائرة الكلامية[8]. أمّا بلومفيلد فهو لا يؤمن بالأفكار أو الحقائق العقلية وإنّما يكتفي بما يمكن ملاحظته وقياسه من المثيرات والاستجابات ومقامات الأحداث والاستقبال التّي في ضوئها تتم الدّائرة الكلامية.

3- التّواصل عند جاكبسون Jakobson:

إنّ رومان جاكبسون Roman Jakobson (1896-1982م) يُعدّ من أبرز من تناول عملية التّواصل في اللسانيات، بعد أن طرحت نظرية الإعلام عام 1948 م نموذجا للاتصال من خلال مرسل ومستقبل، تربط بينهما قناة تنتقل عبرها الرّسالة . والنموذج هذا يقوم على نظام لنقل المعلومات . استنتج جاكبسون دائرة الكلام أو الحدث التّواصلي بكل عناصره الضرورية ووظائفه السّت[9]. ويعدّ كتابه " بحوث في اللسانيات العامة " وفي جزئه الثاني الذي يتناول العلاقات الدّاخلية والخارجية للغة،

8 – ينظر ما تعلق بهذا اللغة والخطاب، عمر أوكان، ص45-47، ومناهج علم اللغة من هرمان باول حتى نعوم تشومسكي، بريجيته بارتشت، ص206، 209-211، وتاريخ علم اللغة الحديث، جرهارد هلبش، ص120-122.

9 – ينظر معجم أعلام الألسنية (في الغرب)، هيام كريدية، ص251.

وتحديدًا في فصله الرّابع الخاص بـ " الشعرية واللسانيات" المرجع في النموذج التّواصلي الذي يعود إليه[10].

يذهب رومان جاكبسون إلى أنّ الوظيفة الأساسية للغة هي التّواصل[11]، وأنّ العملية التّواصلية لكي تتم لابُدَّ من ستة عوامل، أو فواعل حسب تعبير عمر أوكان.

3-1- فواعل العملية التواصلية:

أ- المرسل: وهو مصدر الخطاب أو منتج الرّسالة سواء أكانت سمعية أو بصرية أم غيرها، ويمكن بشريا أو أليا أو طبيعيا بما فيه الحيواني.

ب- المرسل إليه: وهو متلقى الرّسالة ويقوم بعملية التّفكيك لكل أجزاء الرّسالة سواءً أكانت كلمة أم جملة أم نَصّا أم محادثة ...إلخ من أجل أنْ يعرف ما يريده المرسل.

جـ- الرّسالة: وهي التّي تحقق التّواصل، وهي الجانب الملموس في العملية التّواصلية، حيث تتجسد من خلالها أفكار المرسل في صورة سمعية عندما يكون التّواصل شفويا، وتظهر على شكل علامات خطية عندما يكون التّواصل كتابيا.

د- السّنَن: وهي اللغة أو القانون العلامي الاصطلاحي (الاتفاقي)، فكل رسالة لابُدَّ لها من لغة شرطها أن تكون مشتركة كُليا أو جزئيا بين طرفي العملية التّواصلية وهما المرسل والمرسل إليه.

هـ- السّياق: وهو ما تحيل عليه الرّسالة من موضوعات العالم، والملابسات التّي أنجزت في ضوئها.

و- القناة: وهي الوسط أو المعبر الذي من خلاله يتم انتقال الرّسالة من المرسل إلى المرسل إليه، وهو الأثير أو خطوط الهاتف السّلكية فيما هو شفوي أو صوتي.

وجميع هذه العوامل أو الفواعل تعمل جميعا في تحقق أو نجاح العملية التّواصلية[12].

---

10 - اللغة والخطاب، عمر أوكان، ص48.

11 - ينظر المرجع نفسه، ص49.

3-2- مخطط العملية التّواصلية:

يمكن توضيح عملية التّواصل بشكل موجز وبسيط على النحو التّالي:

حيث يقوم المرسل بإنتاج أو صناعة ومن ثمة أداء رسالة يستقبلها المرسل إليه ومن الضروري أن تتضمن الرّسالة لكي تكون فاعلة، محتوى كلاميا أو خطيا يعيه المرسل إليه في الوقت ذاته، ولا بُدّ أنْ تكون الرّسالة بلغة ما أو نظام رموز شرطه لنجاح العملية التّواصلية أنْ يكون اتفاقيا أو مشتركا بين المرسل والمرسل إليه ولو جزئيا، وتتطلب الرّسالة أخيرًا قناة اتصال تسمح بانتقالها الفيزيائي من المصدر (المرسل) إلى جهة الاستقبال (المرسل إليه)

السّياق (محتوى)

المرسل ..... الرّسالة ..... المرسل إليه

القناة

السّنن (نظام رموز)[13]

وما يمكن أنْ نختم به التّواصل عند رومان جاكبسون هو أنّ اللغويين قبله لم يعيروا التّواصل غير اللغوي أهمية كبيرة، بل كان جُلّ تركيزهم على التّواصل باللغة البشرية[14].

---

12 - ينظر اللغة والخطاب، عمر أوكان، ص48-49، الألسنية مبادؤها وأعلامها، ميشال زكريا، ص52-53، التّواصل اللساني والشعرية (مقاربة تحليلية لنظرية رومان جاكبسون)، الطّاهر بومزبر، ص24-33.

13 - ينظر الألسنية مبادؤها وأعلامها، ميشال زكريا، ص53، والنظرية الألسنية عند رومان جاكبسون، فاطمة الطّبال بركة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتّوزيع، بيروت-لبنان، ط1، 1993 م، ص64-65.

14 - ينظر النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون، فاطمة الطّبال بركة، ص63.

رابعا– نظرية المعلومات:

تَعْنى هذه النظرية بالبحوث والدّراسات العلمية التّي تتناول العمليات المتصلة ببث المعلومات واستقبالها، وكل ما يتصل بها من أمور تتكيف تبعا لها تلك العمليات. ولقد كان المهندسون هو أوّل من أبدى اهتماما حقيقا بمشكلات التّواصل، وذلك بأن يؤمنوا قناة البث من إرسال رسائلها نحو جهاز الاستقبال دون تقطع أو تشوّه، غير أن ظهور عالم الرّياضيات نوربير فيينر Norbert Wiener (1894-1964م) كان الحدث الأبرز إذْ يعود إليه وضع الأسس لقيام حقل معرفي جديد يهتم اهتماما نظاميًا بمشكلات التّواصل، وهو علم السّيبرنطيقا أو "علم التّحكم"

وهو علم توظيف الآلات ذاتية الحركة ورد فعلها المنضبط نتيجة لمثير محدّد، وهي آراء كما هو واضح تتفق والمذهب السّلوكي، الذي يرى أنّ السّلوك الذي يصدر عن أي شخص في موقف معين هو نتيجة أو رد فعل ألي أو تلقائي سبق له أن تعلّمه تجاه مثير خارجي محدّد. واشتغل فيينر خلال الحرب العالمية الثانية بالقذائف التّي يمكن لها أنْ تضرب أهدافها بدقة عن بعد. وقسّم الآلات إلى نمطين النمط الأوّل منها: الآلات التّي ينبغي لها أن تحقق هدفا معلوما، والنمط الثاني: الآلات التّي ينبغي لها أن تجد الإجابة الصحيحة عن سؤال بعينه. وعليه كل آلة من الآلات يجب أن تكون قابلة لاستقبال رسالة ما من خارجها، وثانيا أن تتصرف وفقا للرسالة المسْتَقْبَلة[15].

و في عام 1948 قام عالم الرّياضيات كلود شانون Claude Channon (1916-2001) بعرض مقولاتها الأساسية ، و في سنة 1949م قام عالم رياضيات آخر اسمه وارين ويفر Warren Weaver (1894-1978م) ببيان أهميتها العامّة لتطوّر العلم ، و على كلّ قام هذان العالمان بوضع كتاب مشترك تحت عنوان "نظرية رياضية في التّواصل" و هو كتاب موّجه للمشتغلين بالرّياضيات ، أما اللّسانيّون الذي يفتقدون لمعرفة رياضية جيدة فلن يستفيدوا منه ، و لكن هناك من اللسانيين من انبرى إلى

15 – اتجاهات البحث اللساني، ميلكا إفيتش، ص423-424.

تقريبها من حقل المشتغلين باللغة البشرية بعد مراجعتها في مصادرها الأساسية (الرّياضية) منهم شارل فرنسيس هوكيت Charles Francis Hockett (1916-.....).

ولقد كان أقصى ما هدف إليه علماء الرّياضيات والفيزياء من المشتغلين بتصميم ألان تأسيس أقصد الوسائل التّي بها يتم إرسال الرّسائل، وكيفية تذكرها وفهمها فهما دقيقا. وكذلك فعل اللسانيون ولا سيما البنيويون بعد أنْ استوعبوا نظرية المعلومات؛ فأقاموا منهجهم في التّحليل اللساني على تمييز الظواهر اللغوية ذات العلاقة من تلك ليس لها علاقة وأهمية في عملية التّواصل[16].

واكتسبت نظرية رومان جاكبسون اللسانية أهميتها في ضوء نظرية المعلومات، حينما أكد على ضرورة تحديد السّمات الفارقة في الصوت، أي السّمات الثابتة والفاصلة أو الجوهرية في وحدة لغوية ما[17].

وتواجه نظرية المعلومات في مجالها البشري مشكلتين، الأولى: تأسيس الوسائل التّي يتم بها إنجاز أو تحقق التّواصل والثاني: ما يحدث بالضبط في عقول طرفي العملية التّواصلية (المرسل والمرسل إليه). فالمتكلم يقوم بتشفير الفكرة كأجزاء من المعلومات Encoding (تحويل الفكرة إلى نظام من الإشارات التّواصلية) والمستمع أو المستقبل الذي يقوم بعملية حل أو تفكيك الشفرة Decoding (تحويل الإشارات التّواصلية إلى معرفة)، وهذه العملية معقدة جدًّا. والجزء الذي يجري إرساله من المعلومات يكون معلوما للمتكلم بالضرورة وبعمل على وصوله إلى المستقبل بصورة واضحة في ضل تنظيم المكوّنات وتحديد القيمة الفعلية لكل كلمة، وإبعاد كل عنصر من شأنه أنْ يولد غموضا أو سوء فهم من قبل المستقبل كتجانس الألفاظ وجِدّة المعلومات وقيمتها تنبني على عدم توقع أو قلة احتمال العنصر الموالي في السّلسلة الكلامية من الرّسالة فقولنا القارات يابسة والبحار والمحيطات عبارة عن ماء. قيمة المعلومة فيه صفرية فعنصر يابسة لا يزيد لمعنى القارات شيئا وكذلك عنصر "الماء" بالنسبة للمحيطات والبحار. ودون شك أن بناء الرّسالة ونقلها كمعلومات تحتاج إلى جهد. والجهد

16 – اتجاهات البحث اللساني، ميلكا إفيتش، ص425-426.

17 – المرجع نفسه، ص426.

هنا ليس ما هو مادي عضوي، وإنّما يتعلق بعملية الاختيار المقصودة لمكونات الرّسالة وعناصرها من أجل أنْ تبلغ متلقيها بكم أكبر من المعلومات دون الحاجة إلى عدد أكبر من الوحدات أو العناصر اللغوية. إنّ الرّسالة وفق هذه النظرية عبارة عن كم من المعلومات[18].

18 – اتجاهات البحث اللساني، ميلكا إفيتش، ص426-430، وينظر أيضا الألسنية مبادؤها وأعلامها، ميشال زكريا، ص55-60.